

قراءة فى سجلات رحلات كريستوفر كولومبوس إلى العالم الجديد

كان « كولومبوس » يقف على الشاطئ الأوروبى ويفكر : ماذا وراء هذه المياه التى تبدو ممتدة إلى ما لا نهاية ؟ ، هل صحيح أن الأشباح تسكنها ؟ ، يقولون إن خلفها نهاية العالم ؛ فإذا فكر أحد أن يتوغل فيها ، فسوف ينتهى إلى هوة هائلة تبتلعه ، ولكن هذه القصص لا تتفق مع المفهوم الجديد عن كروية الأرض ، إنها خرافات يرددها الذين يخافون من البحر ، أما أنا فأحلم باقتحام هذا المجهول ، لدىّ خططى وأفكارى ، ولكنى عاجز عن تنفيذها ، لأننى لا أملك المال لبناء السفن وتجهيزها بالرجال والعتاد .

ذهب « كولومبوس » إلى ملك البرتغال ، وقال له : « إن طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب طويلة جداً ، ويتعرض المسافرون فيها للعديد من الصعاب والأخطار ، فنصل بضائع الشرق ، مثل الكافور والقرفة والفلفل وجوزة الطيب والقرنفل والحرير إلى أوروبا ، وقد ارتفعت تكلفتها ، فتباع بأسعار مرتفعة » .

قال له الملك : هذا حقيقي - فماذا تقترح ؟ .

فبدأ « كولومبوس » يشرح له أفكاره ، قائلاً : « بدل أن نتجه إلى الشرق براً ، تأخذنا إليه السفن في المحيط الكبير - ولأن الأرض كروية ، فلا بد أن هذا المحيط ينتهي عند بلاد الشرق : الهند والصين واليابان » .

تردد الملك قليلاً ، وسأل مستشاريه ، فقالوا له إن « كولومبوس » معتوه !

لم يئأس « كولومبوس » ، وحمل أفكاره ومشروعه إلى الملكة إيزابيلا القشتالية ملكة أسبانيا ، وهذه الملكة هي التي حاربت المسلمين في الأندلس ، وكانت تطمح في الوصول إلى الشرق بسحره وذهبه وتوابله ، فوافقت على تمويل رحلة ذلك البحار المغامر إلى الشرق بحرًا .

وفي الثالث من أغسطس ١٤٩٢ ، بدأ « كولومبوس » مغامرته التاريخية ، ومعه مائة رجل ، على ثلاث سفن هي ال (نينا) ، وال (بنتا) ، و (سانتا ماريا) ، وكانت الأخيرة هي سفينة القيادة .

وكانت الملكة إيزابيلا قد كلفت « كولومبوس » بأن يسجل ويصف مشاهداته في يوميات للرحلة ، كما فعل من قبله رحالة اسمه « ماركوبولو » ، قام برحلة إلى شرق آسيا عن طريق البر ، وكتب تقريراً عن رحلته ، عامراً بالغرائب والحكايات العجيبة .

وثمة كتابات عديدة حول « كريستوفر كولومبوس » ، يصوره بعضها كمستكشف بطل حقق إنجازاً كبيراً للبشرية ؛ فقد كان يقصد فتح طريق بحرى لتجارة الشرق ، فاكشف - دون أن يدري - أرضاً جديدة هي القارة الأمريكية الشمالية والقارة الأمريكية الجنوبية ، والعجيب أنه مات وهو يعتقد أن الأرض التى عبر إليها المحيط هى جزر الهند الغربية ، وتجرى حالياً فى كل من إسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول أمريكا الجنوبية وقائع احتفالات بمناسبة مرور خمسمائة سنة على رحلة « كولومبوس » ، فى حين لا يرى البعض فى « كولومبوس » إلا غازياً ، وأنه أسوأ من « أتिला » زعيم التتار ، ومن « هولوكو المغولى » ومن الزعيم النازى « هتلر » ، وعلى أى حال ، لا يهمنا من « كولومبوس » فى هذا المجال إلا أن تلقى نظرة على سجلات رحلاته التى احتوت على ما رآه بنفسه من غرائب فى البحار التى أبحر فيها إلى المجهول ، وفى الجزر التى وطأت أرضها قدماء .

مرت الأيام على « كولومبوس » ورجاله بطيئة ، ظلوا مبحرين لمدة ٤٣ يوماً ، لا يرون غير البحر والسماء ، وفجأة صاح أحد الرجال المكلفين بالمراقبة على سطح السفينة « نينا » ، فأسرع جميع البحارة يمسحون الأفق بعيونهم ، ولكن أين هى الأرض ؟ ، لا أرض ، كان المراقب يشير إلى طائر بحرى عريض الجناحين ، يلتقط غذاءه من الأسماك من بين الأمواج ، كان ظهور الطائر البحرى فألاً طيباً للبحارة ، إنه على أى حال ، أول كائن حى

يقابلونه منذ بدأت الرحلة ، وها هو ذا طائر آخر يحوم فوق سطح المحيط مختالاً بريش ذيله الطويل المقوس ، كانت أوامر « كولومبوس » لجميع بحارته أن يراقبوا ويسجلوا ما يرونه من طيور بحرية وأعشاب وطحالب طافية ، أو أى ظاهرة طبيعية تدل على أنهم يقتربون من الأرض .

وأى « كولومبوس » الطائر الطويل الذيل فعرفه على الفور ، فقد سبق أن رآه فى رحلة على متن أسطول تجارى إلى سواحل غينيا ، أطلق عليه اسم (ذى الذيل القصبة) ، وسجل « كولومبوس » فى دفاتره نوعاً آخر من الطيور أسماه (الخطاف ذى المنقار الأحمر) ، وسجل فى ملاحظاته عن الطائرين أن كلا منهما خبير بفنون صيد الأسماك ، ولكنه لا يجيد فنون القتال ، فلا يستطيع الدفاع عن نفسه إذا هاجمه الطائر البحرى الضخم المعروف باسم (الفرقاطة) ، والمعروف عنه أيضاً أنه يهوى سرقة محصول الطيور الأخرى من الأسماك .

ولم يكن « كولومبوس » يعرف أنه يقترب من أرض غير موجودة على أى من خرائط ذلك الزمان ، إذ أن أحداً فى أوروبا ولا فى أى مكان آخر من الأرض لم يكن يعرف شيئاً عن قارتى أمريكا (الشمالية والجنوبية) الموجودتين حالياً ، كانت الخرائط تحتوى على مساحات ضخمة من مياه المحيط ، ممتدة بين غرب

أوروبا وشرق آسيا ، وقد تناثرت فيها بعض الجزر التى لم يرها أحد ، ولكن جاء ذكرها فى روايات منقولة مليئة بالغموض .

إذن ، ها هو ذا الشرق يقترب من « كولومبوس » ، بكل ما يكمن فيه من سحر ، وبقصوره الرخامية ، وأسواقه المملوءة بأكوام الذهب والتوابل والحرير وغيرها من الأعاجيب ، ها هى ذى أرض الشرق تقترب .

ويسجل « كولومبوس » فى يوميات السادس عشر من سبتمبر ١٤٩٢ شيئاً لفت انتباهه بشدة ، فقد كانت المياه المحيطة بسفنه مغطاة تماماً بحشود أو كتل ضخمة من الأعشاب البحرية التى انتشرت بكثافة عالية فى مساحة كبيرة من المحيط ، وكانت ناخذ ألواناً تميل إلى الأصفر والبني والأخضر ، وفى اليوم التالى سجل « كولومبوس » أول حيوان بحرى ، وكان سرطاناً بحرياً صغيراً يتوارى بين الأعشاب الكثيفة ، ولم يعط « كولومبوس » أى أسماء للعشب أو للسرطان ؛ ولكنهما مع البحر الذى وجدا فيه ، يطلق عليهما الآن اسم « السارجاسو » ؛ وهو اسم برتغالى معناه الأرض المغطاة بنباتات لها ذات الشكل واللون .

وكان لبعض الأعشاب لون أخضر زاهى ، كما لو كان قد انتزع حديثاً من تربة قوية ، وهل هناك دليل أقوى من هذا على أن الأرض تقترب ، واستند « كولومبوس » على هذا الدليل القوى ، وكان يشعر بأن رجاله قد أوشكوا على التمرد بعد أن طال بعدهم

عن الأرض ، بل إن بعضهم بدأ يطالبه بالعودة إلى الوطن ، وكان « كولومبوس » واثقاً من نفسه وهو يؤكد لهم أن الأرض ستظهر بعد ثلاثة أيام ، وفعلًا صدقت فراسة كولومبوس ، وفي الموعد الذى حدده ، سمع صياح الرجال على ظهر السفينة بنتا : الأرض - الأرض .

وفى نهاية نهار الثانى عشر من أكتوبر ١٤٩٢ ، رست سفن كولومبوس أمام إحدى جزر الباهاما ، وعندما رأى البحارة أرض الجزيرة توقعوا أن يندفع إليها قائدهم ، فقد طال شوقهم إلى الأرض ، ولكنهم فوجئوا « بكولومبوس » ينتظر حتى صباح اليوم التالى ، ويسلك طريقاً طويلاً غير مباشر فى الوصول إلى الجزيرة ، ولم تكن لهم خبرة قائدهم الذى كان يعرف الشعاب المرجانية الخطيرة ، فانتظر حتى بداية النهار ، ليتمكن من اختيار ممرات آمنة لسفنه ، بعيداً عن القمم المدببة للشعاب المرجانية ، وفى تلك الجزيرة ، لم يسجل « كولومبوس » أنه رأى حيوانات غير البيغاوات ، ولقد سره أن يجد هذه البيغاوات ؛ فقد كان لدى الأوروبيين بصفة عامة ، اعتقاد بأنه حيث توجد البيغاوات يوجد الذهب .

ولما رأى أهل الجزيرة مدى شغف « كولومبوس » بالبيغاوات ، قدموا له هدية عبارة عن بيغاء فى قفص ؛ فأسعده ذلك كثيراً ؛ فتتابعت هداياهم من نفس النوع . ولما عاد « كولومبوس » إلى إسبانيا فى شهر مارس من السنة التالية ، حمل معه أربعين بيغاء ،

وقد روع « كولومبوس » حين رأى نوعًا ضخما من السحالي ، يحمل على ظهره بروزات قرنية قوية ، ودارت معركة شرسة بين تلك السحلية والبحارة قبل أن يتمكنوا من أسرها وسلخها ، وحمل « كولومبوس » جلدها العجيب إلى إسبانيا لتراه الملكة إيزابيلا .

كما تضم سجلات الرحلة وصفاً لطيور صغيرة الحجم لم يرها « كولومبوس » من قبل في أوربا ، إنها الطيور الطنانة التي تتميز بصغر الحجم ؛ ومنها نوعان يبلغ طول الأول بوصتين ونصفاً ، في حين لا يزيد طول الثاني عن ربع البوصة ، وهي أصغر الطيور في العالم .

وعاد « كولومبوس » إلى إسبانيا في الخامس عشر من مارس ١٤٩٣ ، وفي منتصف أبريل ، أقيم احتفال كبير لتكريمه ، حيث أغدقت عليه الملكة إيزابيلا الأموال والألقاب ؛ كما أعدت له أسطولاً جديداً مكوناً من سبع عشرة سفينة ليقوم برحلته الثانية إلى الأرض الجديدة التي اكتشفها .

وقد بدأت الرحلة الثانية في الخامس والعشرين من سبتمبر ١٤٩٣ . وتشير سجلات الرحلة الثانية إلى استمرار حرص « كولومبوس » على رصد وتسجيل مشاهداته اليومية ، ففي جزيرة كوبا ، يصف نوعاً من الحمام كبير الحجم ، له زوائد فوق رأسه تشبه التاج الأبيض ؛ ونوعاً من البط في حجم الأوز ؛ وطيوراً ضخمة تشبه طيور الغرائيق ، غير أنها حمراء اللون ، وهي المعروفة

الآن باسم البشاروش الأكبر ؛ وأنواعا من الغربان والنسور ،
وطيور الغرياق ، والصقور ، وطيورا في حجم الدجاج أعطاهما
اسم (الحجل) ، ويتساءل « كولومبوس » في يوميات الرحلة
الثانية ، أليست هذه الأرض امتدادا للشرق ؟ أين الملوك والأمراء ؟
أين القصور وأكوم الذهب والتوابل ؟ ، إنه لم يجد شيئا مما كان
يحلّم به .

وسرعان ما بدأت المشاكل تواجه « كولومبوس » متمثلة في الأمراض
التي تعرض لها رجاله ، والسخط وحالات التبرم التي كانت تتابعهم ،
بالإضافة إلى ما كانوا يدبرونه فيما بينهم من مكائد ودسائس ، واشتدت
تلك الأمور في الرحلة الثالثة التي بدأت في ٣٠ مايو ١٤٩٨ وانتهت
في ٣١ أكتوبر ١٥٠٠ ، وامتدت إلى الرحلة الرابعة والأخيرة التي
بدأت في ٩ مايو ١٥٠٢ وانتهت في ٧ نوفمبر ١٥٠٤ ، ولكن كل
تلك المنغصات لم تكن لتمنع « كولومبوس » عن تدوين مذكراته
وملاحظاته عن مشاهداته في الأرض الجديدة .

وقد تمكن كولومبوس في رحلته الثالثة من الوصول إلى أراضي
أمريكا الجنوبية ، حيث رست سفنه في خليج كان يسمى (خليج
باريا) ، وهو الآن جزء من دولة فنزويلا ، فوجد الأهالي يستقبلونه
بترحاب واضح ، ويتبادلون معه السلع ، فكانوا يعطونه اللآلئ
مقابل أى شيء يقدمه لهم مما حملته سفنه ، وسرعان ما تكونت
« لكولومبوس » شحنة كبيرة من اللؤلؤ ، بادر بإرسالها إلى إسبانيا .

وسجل « كولومبوس » فى رحلته الثالثة مشاهدته للديك الرومى الذى كان يسميه بالطاووس ، والحقيقة أنه لم يميز بين الديك الرومى والطاووس إلا فى سجلات الرحلة الرابعة ، حيث أطلق عليه اسم (الدجاجة الكبيرة) ، وقال عنه : إن لذلك النوع الجديد من الدجاج مذاقا أشهى من (دجاجنا) .

وقد انتهت رحلة « كولومبوس » الرابعة نهاية حزينة ، إذ هبت على أسطوله عاصفة شديدة أمام شاطئ جامايكا ، وتحطمت سفيتان ، وطلب « كولومبوس » العون من أهالى تلك المنطقة فرفضوا ، وكان الرجال الذين غرقت سفيتاهما يعانون من الجوع والإرهاق ، فلجأ « كولومبوس » إلى خبرته ومعلوماته الفلكية يستغلها لدفع الأهالى إلى إمدادهم بالطعام ، لقد كان يعلم أن موعد خسوف القمر يقترب ، وتأكد من حساباته الفلكية أنه سيحدث فى الليلة القادمة ، فأرسل المغامر البحرى المحنك إلى الأهالى يحذرهم ويتوعدهم بأنه سوف يجعل القمر يختفى إلى الأبد إذا لم يقدموا له ولرجالهم الطعام .

وسخر الأهالى من تحذيره ، ولكنهم فوجئوا بالقمر يختفى فعلا ، وما إن بدأ الخسوف ؛ حتى انتابهم الذعر الشديد ، وتأكد لهم صدق تهديدات « كولومبوس » ، وأنه قادر فعلا على إخفاء القمر ؛ وأسرعوا يقدمون له الطعام ويرجونه أن يبعد عنهم غضبه ، فوعدهم خيرا ، وتلاشت الظلال عن وجه القمر

وعاد مضيئاً ، لأن تلك الظاهرة الطبيعية - الخسوف - كانت قد انتهت ، ولكن جهل الأهالى صور لهم أن لعنة « كولومبوس » قد زالت عندما استجابوا لمطالبه ، ولم يعودوا يرفضون له طلباً .
ونعل أعجب ما سجله « كولومبوس » فى دفاتر رحلاته ، ما حدث فى يوم ١٢ من يونية ١٤٩٤ ، وكان أسطوله يتحرك أمام الساحل الجنوبى لكوبا ، حيث أحيطت السفن ، فجأة بحشود كثيفة من الفراشات ، ثم فجأة أيضاً هبت عاصفة ممطرة ، فأزالت تلك الحشود ، ويتساءل « كولومبوس » فى سجلاته : ماذا كانت تفعل تلك السحابة من الكائنات الرقيقة فوق مياه المحيط بعيداً عن اليابسة ؟ إنه حدث يصعب تفسيره .